السياقات الحافة بالمشاعر دراسة تحليلية في المُفصَّل من القرآن الكريم

أ.د. عباس أمير معارز حوراء طاهر مالك

جامعة القادسية/ كلية التربية/ قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية

hwratahr959@gmail.com abbasameir@gmail.com

ملخص البحث

راعى الخطاب القرآني خطاب المشاعر, المراعاة التي جعلت منه سببًا لاستثارة الانفعال البناء, ابتداء, ثم سببًا لتحقيق الاستجابة العاطفية التي ستصير توطئة يحصل على أثرها القبول العقلي. ولذا جاءت سور المفصل, وهي التي نزلت ابتداء, مشحونة بشحنة انفعالية، تقرع الأذن، ويهز لها الوجدان، انسجاما وطبيعة العربي الوجدانية، التي تتلقى المؤثرات من بوابة الإحساس والمشاعر، ليصبح تلقي الخطاب القرآني المستند إلى تلك المظاهر السياقية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية والدينية, هو المنطلق الذي يمتد إلى غيره من الحضارات الإنسانية، فحينما نتكلم عن جنبة المشاعر التي يثيرها الخطاب القرآني لاسيما في سور المفصل منه، فلا نعني أن ذلك التأثير مقتصر على بيئة العرب فحسب، بل إنه انطلق من تلك البيئة وامتد إلى غيرها، في المكان والزمان, حتى هذه اللحظة. فحينما نتلو سور المفصل يكتنفنا شعور مغاير مقارنة بالسور الطوال والمثاني, مع ما في تلك السور من استثارة المشاعر ولكن ما تستنهضه سور المفصل يختلف من حيث الدفقة الشعورية الأولى وتأثيرها الذي له ما يتبعه من استثارات.

Abstract

The Qur'anic discourse took into account the discourse of feelings, taking into consideration that made it a reason for stimulating constructive emotion, first, and then a reason for achieving the emotional response that would become a prelude, the effect of which would achieve mental acceptance. Therefore, Surah Al-Mufasal, which was revealed initially, was charged with an emotional charge, ringing with the ear, and shaking the conscience, in harmony with the emotional nature of the Arab, which receives influences from the gate of sensation and feelings, so that receiving

the Qur'anic discourse based on these social, cultural, moral and religious contextual aspects becomes the starting point. Which extends to other human civilizations. When we talk about the feelings raised by the Qur'anic discourse, especially in the chapters on it, we do not mean that that influence is limited to the Arab environment only, but rather that it started from that environment and extended to others, in place and time, even this. the moment. When we recite Surah al-Mufassal, we are enveloped in a different feeling compared to the long and repeated surahs, despite the fact that those surahs stimulate feelings, but what Surah al-Mufassal arouses differs in terms of the initial emotional surge and its effect, which has subsequent consultations

المقدمة

مما لاشك فيه, أن سور المفصل في معظمها سور مكية(١)، وإذ هي كذلك, فإنها ذات سمة عاطفية بادية للعيان, مردها إلى طبيعة موضوعاتها أولًا, وإلى طبيعة المخاطَب بها ابتداء, ألا وهو العربي ابن البيئة الصحراوية بكل حيثياتها الاجتماعية والثقافية, التي أضفت على ذلك المجتمع طابعًا معينًا, كما أسهمت بمقدار أو بآخر في تكوين هوية العربي الذي يعد أول من تلقى تلك السور آنذاك(٢).

ولأن الخطاب القرآني في المفصل كغيره من السور القرآنية غايتها الخروج بالذات العربية من الكفر والشرك إلى الإيمان، فقد جاء المُفصَّل ليحقق هذه الغاية من طرق كثيرة منها موضوعات المفصل وطبيعة الأداء اللغوي

الذي أبان عن تلك الموضوعات, فالإيمان قضية عاطفية ابتداء(٣). لذا يقال؛ إن المشاعر بِعدّها المحور الأساس في قبول المعتقدات الدينية أو رفضها, من جهة, وفي تكوين عناصر الخلق المجتمعي من جهة أخرى, لا تغير وجهتها إلا وتغيرت معها حياة المجتمع تغيرًا جوهريًا(٤), وغالبًا ما تحدث تلك التقلبات فيما لو اختل التوازن بين عناصر البيئة من جهة, وبين عناصر الشعور من جهة أخرى(٥). وبناء على ما سبق, كله, يصير لزامًا علينا أن نعطف وجهتنا شطر السياق الذي كوَّن الشخصية العربية أبان نزول سور المفُصَّل تكوينًا جديدًا.

أولًا- السياق الاجتماعي

وهو السياق المتضمن جلّ الأحداث الاجتماعية والعوامل البيئية المحيطة بالفرد, والمتكونة في صلب الجماعة المنتمي إليها, وهذا بطبيعة الحال يلزم أفراد البيئة الواحدة بعادات اجتماعية ذات طابع معين, يتحدد بموجبها سلوك الأفراد وطبيعة تفاعلاتهم(٦).

وقد تمثلت طبيعة العلاقة القائمة بين العربي والبيئة التي يقطنها، بكونها علاقة متبادلة, فهو يتأثر بها ويؤثر فيها. فالبيئة أضفت على العربي وأسهمت في تكوين جانبه الاجتماعي والعاطفي. ولذا جعل العربي من موجودات البيئة أداة تصويرية طوعها ليعكس من طريقها ما يشعر به من أزمات معينة، ليصبح ذلك الشعور جزءًا لا يتجزأ من كينونة العربي من جهة، وتصبح العلاقة بينه وبين بيئته علاقة تلازمية من جهة أخرى(٧). وبذلك المقدار أصبحت البيئة العربية عاملًا رئيسًا في تكوين شخصية العربي في ضمن علاقة يتماهى بموجبها الإنسان في بيئته, لتمثل تلك العلاقة نقطة البدء للتمهيد لعلاقات اجتماعية أكثر توطيدًا، فالصحراء ((سمة تواكب الذات وتلازمها وتمتزج وإياها في وحدة عضوية لا فكاك لأواصرها))(٨). كما وهبت البيئة الصحراوية ذلك العربي تضادًا شعوريا متماهيًا مع تضاد الطبيعة البيئية، فهو في ذات الوقت كريم وبخيل، مغتاظ وحليم، رقيق وغضوب، عفو وذو انتقام(٩).

ومن زاوية أخرى نرى في حياة العربي صورة مفككة جسدتها طبيعة حياته غير المستقرة القائمة على الترحال والتنقل، فقد فرضت عليه البيئة بعواملها المختلفة ((حياة شاقة لامجال فيها للقرار واستيطان الأرض. فالقبائل تنتقل مع إبلها ومواشيها وخيامها وأمتعتها المتواضعة من مكان إلى مكان، تتبع مساقط الغيث ومنابت الكلأ))(١٠). كما كانت حياة العرب الاجتماعية خاضعة للرؤية الفردية، فهو الإنسان المحب للحرية, المكتفي بنفسه ذلك الاكتفاء الذي فرضته عليه سجيته الفطرية(١١), إلا أن العربي مع اكتفائه بنفسه، يعلن انتماءه لقبيلته. وتعد القبيلة بمثابة الوحدة الاجتماعية الصغرى التي ينتمي إليها الفرد استنادا إلى روابط قبلية قوامها العصبية القبلية التي ((تستمر بتعاقب الأجيال، على نمط عاطفة عميقة وفكرة ثابتة)) (١٢).

وفي قوله تعالى؛ ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾(١٣), يصور لنا الخطاب القرآني تلك العصبية, فحميتهم من قبيل؛ ((تعصبهم لآلهتهم))(١٤), والحمية بعدها لفظًا عامًا مطلقًا, يراد بها؛ التكبر والإباء والأنفة والتشفي(١٥). ولما كانت الحمية, بتلك الدلالة, إذ يدخل في طياتها الحمية المنضبطة والموجهة لأجل الحق وإرادة الرحمة, ومنها ما هو موجه باتجاه فوضوي انعكاسي؛ لذا قيدها النص القرآني بقيد الجاهلية. فحمية الجاهلية, شعور العربي الجاهلي المتضمن معنى؛ ((التشفي على مقتضى الغضب لغير الله فتوجب تخطي حدود الشرع))(١٦)، ثم كان عاقبة ذلك الشعور ((أن تكبروا على كلمة التقوى وطاشوا وخفوا إلى

الشرك))[١٧]. وهذا بطبيعة الحال يفسر لنا القول الذي يذهب إلى أن معنى الجاهلية لا يراد بها مطلق الجهل الذي هو نقيض العلم، بل تحمل في طياتها معنى ((السفه والحمق والغلظة والغرور))[١٨]. تلك الصفات وأمثالها, تعود إلى طبيعة المشاعر التي ميزت شخصية العربي ووسمتها بطابع العناد.

وفضلًا عن (حميّة الجاهلية), هناك (تبرّج الجاهلية), يتولى الخطاب القرآني تبيانها، في قوله تعالى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١٩]. فالتبرج هو؛ ((التبختر في المشي وإظهار الزينة))[٢٠]، ويقال بهذا الشأن, إن المرأة في الجاهلية الأولى تتزين بالحلي واللؤلؤ، وتستعرض محاسن ثيابها وذاتها, بغية إيقاع مشاعر الإعجاب والافتتان في قلوب الرجال[٢١]. والمعنى المستفاد من النص القرآني, إرادة تكوين مشاعر تفضي إلى تنفير نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم, عن مثل هذا الفعل. وفي خصوص نهيهن، إرادة التعريض لنهي غيرهن من النساء[٢٢].

ويلحظ في شخصية ذلك العربي, أنها متأثرة ومتماهية مع ما هو مادي محسوس أكثر من انسجامها مع ما هو معنوي، وهذا يعني بالضرورة ((أن الذات الناشئة ها هنا تعيش في خديعة الإحساس القاضية بأن الأشياء قابلة للامتلاك))[٢٣], فتصير حينها((مباشرة الآخر ومعرفته مشروطة بإدراكه حسيا، وبما يقدمه للذات المدركة من كم السعادة وكيفها))[٢٤]. وهذا أيضًا يعود إلى طبيعة البيئة, وطبيعة الظروف التي تلقاها في تلك البيئة. فالبيئة الصحراوية الجرداء يكتنفها الفقر، وغالبًا ما يتجه الإنسان الذي يعيش في بيئة فقيرة إلى الأشياء المادية التي تعود عليه بالفائدة والنفع، فهو لا يهتم إلا بالفوائد الحسية، فعمد إلى تصوير ما هو موجود في البيئة تصويرًا حسيًا[٢٥], مستقى من المظاهر الحية أو الصامتة، أو من الصور المتخيلة في الذهن[٢٦], وهذا ما راعاه القرآن وهو يخاطبهم ابتداء, في سور المفصَّل. فجعل المدركات الحسية سببًا إلى ترقيهم إلى البعد المعنوي للحياة, فكان البعد الحسي في سور المفصَّل كاشفًا عما يتساوق وطبيعة العربي التي تميل إلى ما هو مادي محسوس، فأكثر من تصوير السماوات والأرض والجبال والبحار والأنعام والإبل والنبات .الخ. كما في قوله تعالى؛ ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[٢٧].

ثانيًا: السياق الثقافي

وهو السياق الذي يتضمن مجمل القيم الثقافية الحافة بالحدث الخطابي وهو يؤدي وظيفته الابلاغية التواصلية في ضمن أهل اللغة الواحدة فكل نظام لغوي له طابع ثقافي يتلون بإزائه[٢٨]. ولأن البيئة العربية

أعطت للغة بعمومها وللشعر بخصوصه مكانة مرموقة، عمدت إلى ربطت الكلام المنظوم بمختلف ضروب الحياة الاجتماعية والنفسية والسياسية. وعلى الرغم من الاختلاف الكائن بين القبائل العربية، سواء أكان ذلك الاختلاف يتعلق بالجانب اللّهجي أم يتعلق بالعادات أو الطباع إلا أن لغة الشعر هي القاسم المشترك بين قبائل العرب جميعها. فالمجتمع العربي وإن كان حينها مجتمعًا بدائيًا بدويًا غير أنه بلغ مبلغًا فنيًا تطوريا، إذ إنه أُلهِم قوة التعبير عن المشاعر بأدوات تعبيرية, صيّر من طريقها اللغة أسلوبًا تأثيريًا في شتى ظروف حياته, ولهذا جاءت لغته الشعرية بجانبين شعوريين, فقد يتخذها العربي أداة لرفع عزيمة القوم وشد هممهم لا سيما في الحروب، وبالمقابل قد يتخذها أداة لتثبيط عزيمة الآخر وسلب همته، فتصير الكلمة حينها أكبر من مجرد كلمات صماء(٢٩). وقد أضحت لغة الشعر المرآة العاكسة لشعور العربي ومايختلجه من سرور أو حزن أو غضب، وهي ميدان ما يدور في مخيلته وما يسترعي انتباهه العاطفي, فهي الوسيلة التي يعبر بها عن نفسه(٣٠).

ولا تعد لغة الشعر تعبيرًا عن مشاعر المخاطِب فحسب، بل إنها توقظ في السامع شعورًا انتقاليًا من صاحب الشعور نفسه إلى المتلقي، عبر قناة تعاطفية، أداتها اللغة, وما يساعد في انتقال المشاعر، لما في الشعر من نسق نظامي موسيقي تطرب له الأذن ويهز له الوجدان(٣١). ولهذا أعتقد ذلك العربي أن لكل شاعر شيطانًا يلهمه الشعر، يريدون بذلك، ما يكتنف الشاعر، من مشاعر معينة تختلجه, تهز جانبه الوجداني، فيعمد إلى ترجمتها شعرًا, وهو يعتقد أن هنالك من يقول على لسانه, وليس هو(٣٢).

وقد جاء وصف شعور الهيام نسبة لأولئك الشعراء, في قوله تعالى؛ ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾(٣٣). وهيامهم هنا هو ذلك الحب الشديد الذي يتجاوز الحد المعقول(٣٤), فهو من قبيل الحب الذي يغلب على كيان صاحبه فيستولي على عقله(٣٥). فالهائمون هم ((العشاق الموسوسون))(٣٦)، وقيل في الشخص الهائم إنه, ((يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه))(٣٧). فشعور الهيام؛ هو ذلك التحير الذي يفضي إلى تردد صاحبه وتخبطه(٣٨). وفي الخطاب القرآني السابق, أُريد بالخطاب خصوص الشعراء وليس عمومهم, وهو كناية عن تحيرهم واضطرابهم في القول في فنون الشعر وأغراضه, فحالهم شبيه بحال الهائم في فروع كثيرة متشعبة, فهم خاضوا في كل أغراض القول طمعًا في المال, فقد يمدحون السيء ويذمون المحسن(٣٩). وفيه؛ ((تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق ومجاوزة حد القصد فيه))(٤٠).

وبالعود إلى بدء, يبدو إن البيئة العربية أبان نزول الخطاب القرآني، كانت تتخذ من اللغة أداة لتصوير انفعالات أبنائها من جهة, وأداة للتأثير العاطفي في الآخر من جهة أخرى، فكانت المظاهر الفكرية لحياة

العربي ((تتمثل لنا في إنتاجه الفني أو الشعري على وجه التحديد (...) فالشعر في هذه الصورة يكون انفعالًا بجمال الأشياء أو قبحها))[٤١].

ثم عناية العربي تلك بالصورة الحسية من صور الجمال, كانت سمته البارزة[٤٢], وهو مايعني ((وضع المتلقي في حالة استجابة، وتركه في حالة شعورية، وذلك متى تمت عملية إيقاظ أحاسيسه ومشاعره التي تأتي كمرحلة تالية بعد أن تتم عملية اجتذاب سمعه))[٤٣]. ومن هذا المنطلق كان لابد للخطاب القرآني في ابتداء نزوله، أن يتساوق فنيًا مع تلك الثقافة. فالرسالة الدينية في ابتدائها؛ ((معطى وجداني لا يعارض المنطق(...) إنه معطى يتموقف في مستوى القيم العاطفية التي ينطلق منها الشعور – بالذات حتى يتعرف كل فرد على آنيته وأناه، ويؤكد وجودهما))[٤٤].

الحيثية العاطفية هذه, لا تتموقف عند حدود العربي فقط وإن كانت أكثر بروزا في الثقافة العربية، باعتبار أن الجانب الشعوري هو قاسم مشترك بين جميع البشر, ولكنها المدخل الأول الذي يمكن أن نصل من طريقه إلى غاية الإقناع في أي شيء[٤٥]. ومن هذا المنطلق سنفهم, علة أن أغلب السور المكية ذات شحنة مؤثرة تخاطب الوجدان أولًا, قبل مخاطبتها الحجة بالحجة في ضمن الخطاب الحجاجي. وهو ما يفسر الفكرة التي تقول؛ ((إن أكثر السور المكية لاسيما المنزلة في أوائل البعثة قوارع تَصُخُّ الجنان, وتصدع الوجدان, وتفزع القلوب إلى استشعار الخوف, وتدعو العقول إلى إطالة الفكر في الخطبين الغائب والعتيد, والخطرين القريب والبعيد))[٤٦]. ولهذا جاءت بشحنة شعورية ((ذات وقع معين في الأذن والنفس, تبعث على الرهبة والخشية وتشعر بمعنى الجلال والجبروت))[٤٧]. فالذي أراده الخطاب القرآني في بادئ الأمر هو التأثير في نفس العربي ووجدانه بشحنة انفعالية مهيمنة، باعتبار أن الجانب العاطفي في الخطاب العربي, هو جزء لا يتجزأ من طبيعة تلك الثقافة آنذاك.

ومردّ ذلك, على وفق علماء العرب القدماء أنفسهم, إلى أن العربي ذو ارتجال وبداهة وكأن الأمر، ينثال عليه انثيالًا بإلهام دون أي مكابدة أو عناء[٤٨]. لذا يقال؛ إن العربي الجاهلي ((لم يمارس العلم ولن تكن له فلسفة ولا منطق، إنما تميزت ثقافته بالفنون الأدبية من خطابة ونثر وأمثال وشعر(...) وقد فطر على البديهة والارتجال والإلهام. وهو ذكي سريع الخاطر يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة))[٤٩].

ومن هنا يتبين لنا, جانب من السبب الكامن وراء قصر سور المفصل مقارنة ببقية السور باعتبار بديهة ذلك العربي وارتجاله الشعوري المتأتي من اعتماده على إدراكه السمعي, فضلًا عن طبيعة إدراكه الأولي لما حوله وتأثره النفسي بما يجري في محيطه. وهو ما جعل من الخطاب القرآني ذلك؛ ((الفضاء الروحي والفكري

الذي صاغ الهوية الحضارية العربية والإسلامية، وهو النبع المتدفق الذي يرفدنا بالمعنى والقيمة))[٥٠], والذي يتحقق بإثره هو ((خصوصية تترك شعورًا يلقى بظلاله على الصياغة الفنية، بحيث يكون قادرًا على إثارة انفعالات المتلقين وعواطفهم، فيحقق لديهم متعة ولذة واستجابة))[٥١].

ثالثًا: السياق الأخلاقي

هو ذلك البعد الأخلاقي المتضمن للقيم والمبادئ التي يتصف بها الفرد, وتصدر عنه دونما تكلف, وعلى إثرها يتحدد السلوك السوي والغير سوي، وعادة ما تتم صياغة المبادئ والقيم الأخلاقية في أي بيئة مجتمعية ضمن خطين متوازيين، أحدهما يتكون في بوتقة المجتمع، بكل قوانينه وأنظمته التي تلزم أفراده على الاحتذاء بهديها ومحاكاتها. أما الخط الآخر فينشأ من عمق المشاعر الإنسانية، بما يسمى الضمير أو المشاعر الذاتية. العاطفة الاجتماعية الأخلاقية التي يمليها الضمير تقدم رؤية موجهة من منظور الآخر وفق الضبط الذاتي الذي يتم من طريقه التحكم في الرغبات المتدنية[٥٢], ثم أن تلك المعايير الأخلاقية التي تمليها الطبيعة الإنسانية هي الأساس في استمرار المجتمعات وبقائها.

وها نحن نلمس تجسيد ذلك الجانب وانعكاسه في حياة العربي, والذي تمثل في اهتمامه بمبادئه الأخلاقية, فهو وإن تمادى في العدوان على الآخر لغرض المنافسة على أسباب الحياة، إلا أن جانبًا قيميًا أخلاقيًا ظهر في بعض سلوكياته[٥٣] . فكان للجاهلي منظومته الأخلاقية القائمة على المروءة والنخوة والشجاعة والكرم التي وسمت ملامحها الحياة الصحراوية القاسية، إلا أنها بقيت مؤطرة ضمن أطر المحدودية والمادية فلم تستوعب طموحات وتطلعات العربي التي ((ترنوا إلى التعاطف والحرية والمشاركة، فهو يرى أن تلك المنظومة ضمن محدداتها القبلية قد استنفذت، وأنه، قد فرغ من امتلاك الخبرة الحياتية التي أوجبتها))[٥٤].

ومن تلك الخصال التي برزت في شخصية العربي آنذاك؛

أ ـ **الكرم**، وهو أهم المبادئ الأخلاقية التي برزت في حياة العربي، والذي أملته عليه طبيعة حياته، إذ ليست الدوافع الدينية هي المسبب في استنهاض مشاعر العربي بضرورة إكرام الضيف, بل إنها تعد من قبيل المشاعر الذاتية أولًا, ثم أن للبيئة أثر في تحفيزها. فهو في الصحراء القاحلة مضطر إلى التنقل والترحال طلبا للتجارة والرعي, وبحثًا عن الماء والكلأ، ولذا فقد يحتاج إلى الآخر لإيوائه وضيافته ويحدث العكس فيحتاج الآخر له، ثم أن المسألة تعد عرفا اجتماعيًا يقوم على مصالح متبادلة ويتصل بقيمة الكرم عند العربي.

ب ـ **الجود**؛ الذي يعد فرعًا من فروع الكرم الغزير الذي يغدق به الشخص على غيره بصورة مبالغ فيها، وتعد صفة السخاء ضربًا من ضروب المثل العليا بالنسبة لذلك العربي ابن البادية(٥٥). إن خصال الكرم والجود عند العرب, تمثل معيارًا للتفاخر والتباهي فيما بينهم, ثم أن التفاخر بكل ما يحدثه من مشاعر ملذة قد يكون هو الآخر سببًا ودافعًا لتجسيد تلك الخصال واستدامتها(٥٦).

ج ـ ومن شيمهم أيضًا المروءة التي تعد ضربا من المثل الأخلاقية العليا التي تمثلت في((الحلم، والصبر، والعفو عند المقدرة، وقرى الضيف، وإغاثة الملهوف، ونصرة الجار، وحماية الضعيف))(٥٧), فالمروءة عند الجاهلي هي بمثابة معيار المفاضلة والممايزة فيما بينهم.

د ـ ومن صفات العرب الجاهليين النخوة، بمعنى العظمة والافتخار، وتعد معيارا للرجولة. وكذلك هي الشهامة التي تعد من صفات الشخص النبيل وهو((الذي اذا دعي أنجد واذا طلب أجاب))(٥٨). وقد بلغت منظومة العرب الأخلاقية ذروتها واستوت على سوقها, ونفذت إلى بعدها المعنوي متجاوزة حدود المادية مع بزوغ الخطاب القرآني وهذا ما يفسر لنا قول الرسول صلى الله عليه واله وسلم ((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))(٥٩).

ومن منظار آخر؛ برزت بعض السلوكيات التي وصفت أنها غير أخلاقية, تتصل بمشاعر من التكبر والغرور, والخيلاء والغطرسة والزهو، وهي إحدى سمات الجاهلية التي ذمها الإسلام، إذ كان العجب والزهو يبرز في مشية الغرور لأصحاب الجاه والمال. وكذلك ذم الشخص الآخر والانتقاص منه, وهو الذم الذي عبر عنه شعراء الجاهلية من طريق غرض رئيس من أغراض قصائدهم, وهو الهجاء, قد يُستدعى لوقع معين(٦٠).

وفضًلا عن ذلك, هنالك سلوكيات جاهلية, وقف عليها القرآن الكريم, مبينًا لأثرها على مرتكز المشاعر من مرتكزات الشخصية الإنسانية. من ذلك وأد البنات, يقول القرآن الكريم؛ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾(٦١) , وسبب هذا الفعل بكل ماله من أثر نفسي, وبكل مايثيره من مشاعر الحزن والأسى, هو الخوف من العار الذي يلحق بذوي البنت لو تركت فكبرت فأسرت في غزوة تتعرض لها قبيلة الفتاة، أو بسبب الخوف من الفقر(٦٢).

رابعًا: السياق الديني

وهو منظومة من المعتقدات الدينية السائدة في حقبة معينة، التي يؤمن بها الفرد في صميمه, ويشعر أنها توفر له مقدارًا من الأمان, ويتضمن جلّ العبادات والشرائع التي تصبو إلى تهذيب النفس وتزكيتها، كما أنها

تعكس انفعال الإنسان مع الطبيعة، بِعد السياق الديني فعلا دفاعيا محوره الأمان من الخوف(٦٣). وغالبًا ما تستدعي المنظومة الدينية بمظاهر تجلياتها المختلفة جانبًا من المدركات الحسية، إذ إن الأديان تحرص في ظهورها الأول على الوقوف على الغرائز العاطفية، من قبيل، الخوف والتوجس والغضب والرجاء, بغية ضبطها وتوجيهها. ومن المنطلق هذا, نرى أن العامل المشترك بين الديانات بعمومها, مع ما بينها من فوارق واختلافات جوهرية, إنما يكمن في تلك الحيثية العاطفية التي يبقى مضمونها الصميمي ثابتا وإن تغيرت مستحثاتها العقدية. فالأديان (بكل ما تتضمنه من معتقدات), تنهض على مرتكزات روحية لايكون لها أثر إن تجردت من بعدها العاطفي(٦٤).

وإذا ما عطفنا نظرنا تلقاء السياق الديني عند العرب, وتحديدًا قبل نزول القرآن الكريم, نجد ملمحًا دينيًا بدائيًا، ليس فيه بعد روحي عميق, إذ اقتصر الأمر على عبادة الأوثان والطواف حولها. أما امتلاك العرب معرفة مسبقة بالتوحيد، فالأمر لم يأتِ دفقة واحدة بشكل فجائي, بل إن عباداتهم سارت بجنبتين الأولى منهما أطول وأوسع من الثانية. أما الأولى فهي، العبادة الوثنية، وأما الثانية فهي عبادة التوحيد(٦٥).

على أن السياق الديني هذا, مر بمراحل عدة؛ منها ما يسمى بالمرحلة المادية التي عمد فيها المتدينون إلى تقديس الأشياء المادية الملموسة المتواجدة في ضمن بيئتهم, وأسبغوا عليها جانبًا من الألوهية، من قبيل الأشجار والأحجار والكهوف. ومردّ تلك القدسية إلى أنهم شعروا في دواخلهم الوجدانية, أن في تلك المعبودات طاقة خارقة, توفر لهم الحماية وتقيهم من الضرر, وأن هنالك قوى روحية تُبث في صميمها فتعطيها قيمة تعود عليهم بالفائدة(٦٦). ولهذا وقف القرآن موقف الذم والتعريض بهذا الإعتقاد إذ يقول, كاشفًا عن اعتقادهم ذاك, ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾(٦٧). وهكذا كان تصور الجاهليين لتلك الأرواح والقوى الغامضة مستندًا إلى تلك البؤرة الشعورية المتمثلة بمشاعر (الرغبة والرهبة) تجاه الكون بموجوداته, وإذ هو كذلك, فالإيمان لديهم قضية نفسية بحتة, من جهة, ومشوشة (لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ) من جهة أخرى .

فالجاهلي ذو إيمان روحي، ولكنه إيمان يستند إلى إدراكاته الحسية(٦٨). فمشاعره الدينية، مزيج من الخيال, والمادة معًا، تؤمن بما يحس ويشاهد، ثم أنها تعطي لذلك المحسوس، صورة ذهنية خيالية فتعطيه ما ليس له، من قداسة روحية. وقد أشار القرآن الكريم، إلى ملامح الجنبة الدينية عند العرب قبل الإسلام، في قوله تعالى؛ ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ (19) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ (20) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴾(٦٩). ثم تأتي مرحلة أخرى، وهي المرحلة التي صارت فيها الكواكب آلهة، وأهم تلك الكواكب، الشمس والقمر(٧٠), باعتبار

الأبعاد التأثيرية لتلك الكواكب في حياته, إذ إنه شعر بعظمتها إزاء ضعفه هو, فصبت في داخله مشاعر الرجاء تجاه تلك الآلهة طمعا في النفع المرتجى, ومشاعر الخوف والرهبة تحذرا من أضرارها.

نتائج البحث

١ـ تضافرت عوامل عدة في تكوين الطبيعة النفسية للعربي، بيد أن أهمها, تمثل بالعامل الاجتماعي بما تضمنه من طبيعة جغرافية صحراوية من جهة، وطبيعة العلاقات الاجتماعية من جهة أخرى. فأضفى على تلك الشخصية مشاعر ثنائية الأبعاد، تمثل أولها بمشاعر العناد والتكبر والتعصب، أما الآخر فيقع على النقيض من سابقه، إذ تمثل بمشاعر الرقة والعذوبة, التي تستحثها الجنبة الجمالية، فالطبيعة الاجتماعية لذلك العربي متأثره بالبعد الجمالي، بشقيه السمعي منه والبصري.

٢ـ يمكننا القول إن خارطة الشعور عند العربي تمثلت بالعناصر الآتية.

أ- عنصر البيئة بما فيها من منبهات حسية تجتذب حواس العربي وجانبه الإدراكي، تمثل نقطة البدء التي من طريقها، يدخل العربي في حالة من الاستجابة الانفعالية.

ب- الذات الشاعرة, حيث عمد العربي إلى ترجمة مشاعره من طريق الشعر, فكان الشعر عنصرًا ذا أهمية بالغة في إيقاظ مشاعر الآخر, بعدِّه, عند ذلك العربي, القناة المُثلَى التي من طريقها تنتقل المشاعر من قائلها إلى متلقيها.

ج- كان للعرب نظما أخلاقية كونتها الطبيعة النفسية من جهة، وطبيعة البيئة الاجتماعية بكل مآلاتها القاسية من جهة أخرى، إلا أنها بقيت منزوية ضمن تقوقع الحسية المادية ولم ترتق إلى البعد الروحي المعنوي ذلك البعد الذي عمد رسول الرحمة صلى الله عليه واله وسلم إلى استظهاره وإحيائه في ضمن منظومة القيم الأخلاقية لذلك العربي.

د ـ الجانب العبادي، هو العنصر الآخر الذي من طريقه ترجم العربي, ما يكتنفه من مشاعر الرهبة والرغبة تجاه الطبيعة وعناصرها, بكل ما ينضوي تحت الرهبة والرغبة من مشاعر تنشأ من الخوف والرجا.

هوامش البحث

[1]() ينظر؛ الإتقان في علوم القرآن, عبد الرحمن السيوطي؛ ج١/ص٧٠, وينظر؛ الحديث في علوم القرآن والحديث, حسن محمد أيوب؛ ص٢٧.

[٢]() ينظر؛ تفسير المنار, محمد رشيد رضا؛ ج١/ص٢٨.

[٣]() ينظر؛ الآراء والمعتقدات, غوستاف لوبون؛ ص٣٤ ـ وص٣٦.

[٤]() ينظر؛ المصدر نفسه؛ ص٥٢.

[٥]() ينظر؛ نفسه؛ ص٥٣.

[٦]() ينظر, السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، (بحث مستل, مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية)، خليل خلف بشير العامري، ص٥٠.

[٧]() ينظر؛ البواعث النفسية في شعر فرسان عصر ما قبل الإسلام؛ (رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة), ليلى نعيم عطية الخفاجي؛ ص١٣, وص١٦.

[٨]() ينظر؛ المصدر نفسه؛ ص١٦.

[٩]() ينظر؛ مدخل إلى علم اجتماع الإسلام من الأرواحية إلى الشمولية , يوسف شلحت؛ ص٤٠، وينظر؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام, جواد علي؛ ج١/ ص٢٧١, وينظر؛ انعكاس الطبيعة الصحراوية على حياة الإنسان الجاهلي من الناحية الاجتماعية, (بحث مستل, مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية), عبد الله الرازقي؛ ص٤٥٣, وص٤٥٦.

[١٠]() تاريخ العرب القديم, توفيق برو؛ ص٢٥٢.

[١١]() ينظر؛ مدخل إلى علم اجتماع الإسلام من الأرواحية إلى الشمولية ؛ ص٥٤.

[١٢]() تأريخ العرب القديم؛ ص٢٥٣.

[١٣]() سورة الفتح؛ جزء من الآية ٢٦.

[١٤]() البحر المحيط في التفسير, أبو حيان الأندلسي؛ ج٩/ ص٤٩٧.

[١٥]() ينظر؛ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور, البقاعي؛ ج١٨/ ص٣٣٠, وينظر؛ البحر المديد, ابن عجيبة؛ ج٥/ ص٤٠٢.

[١٦]() المصدر نفسه.

[١٧]() نفسه.

[١٨]()المفصل في تأريخ العرب؛ ج١٥/ ص٩١.

[١٩]() سورة الأحزاب؛ الآية٣٣.

[٢٠]() البحر المديد؛ ج٤/ ص٤٢٨.

[٢١]() ينظر؛ المصدر نفسه، التحرير والتنوير, ابن عاشور؛ ج٢٢/ ص١٢.

[٢٢]() ينظر؛ التحرير والتنوير؛ ج٢٢/ ص١٢.

[٢٣]() تأويل المحبة من أخلاق المروءة إلى مقامات العرفان, (مجلة المورد, بحث مستل), د. عباس أمير؛ ص١٦٥.

[٢٤]() المصدر نفسه.

[٢٥]() ينظر؛ تأريخ الأدب الجاهلي؛ ص٤٤٨.

[٢٦]() ينظر؛ المصدر نفسه؛ ص٤٤٩.

[٢٧]() سورة الغاشية؛ الآية ١٧, و١٨, و١٩, و٢٠.

[٢٨]() ينظر؛ دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، د. سمير الشيخ؛ ص١٩٩، وينظر؛ التعاور بين الفعل الماضي والمضارع في ضوء نظرية السياق، (مجلة الدراسات اللغوية)، عاطف طالب عبد السلام؛ ص١٧.

[٢٩]() ينظر؛ المفصل في تاريخ العرب ؛ ج١/ ص٢٦٧، وينظر؛ تأريخ العرب القديم؛ ص٢٧٢.

[٣٠]() ينظر؛ المصدر نفسه؛ ج١٧/ ص١٢٥، وص١٢٦.

[٣١]() ينظر؛ نفسه, ص١٢٦.

[٣٢]() ينظر؛ نفسه؛ ج١٧/ ص١١٨.

[٣٣]() سورة الشعراء؛ الآية ٢٢٤, ٢٢٥.

[٣٤]() ينظر؛ لسان العرب, ابن منظور؛ ج١٢/ ص٦٢٦.

[٣٥]() ينظر؛ شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري؛ج١٠/ص٧٠٢٦.

[٣٦]() بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز, الفيروز آبادي؛ ج٥/ص٣٦٥.

[٣٧]() الكليات, الكفوي؛ ص٣٩٨.

[٣٨]() ينظر؛ التحرير والتنوير؛ ج١٩/ص٢٠٩.

[٣٩]() المصدر نفسه.

[٤٠]() التفسير الوسيط, طنطاوي؛ ج١٠/ص٢٩١.

[٤١]() جمالية الخطاب في النص القرآني, لطفي فكري؛ ص٢٦.

[٤٢]() ينظر؛ المصدر نفسه؛ ص٢٦، وص٢٧.

[٤٣]() نفسه؛ ص٢٩.

[٤٤]() الشخصانية الإسلامية، محمد عزيز الحبابي؛ ص٧٦.

[٤٥]() ينظر؛ المصدر نفسه ؛ ص١٣١.

[٤٦]() نفسه.

[٤٧]() من روائع القرآن , محمد سعيد؛ ص٨٦.

[٤٨]() ينظر؛ البيان والتبيين, الجاحظ؛ ج١/ ص٢٤.

[٤٩]() تأريخ العرب القديم؛ ص٢٧٢.

[٥٠]() جمالية الخطاب في النص القرآني؛ ص١٦.

[٥١]() المصدر نفسه.

[٥٢]() ينظر؛ آدم سمث, ايمون باتلر؛ ص٧٠، وص٧١.

[٥٣]() ينظر؛ تاريخ العرب القديم؛ ص٢٦٢.

[٥٤]() تأويل المحبة من أخلاق المروءة إلى مقامات العرفان ؛ ص١٦٦.

[٥٥]() ينظر؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام؛ ج٨/ ص١٦٦، وص١٦٧.

[٥٦]() ينظر؛ المصدر نفسه؛ ج٨/ ص١٧٦.

[٥٧]() نفسه؛ ج٨/ ص١٦٥.

[٥٨]() نفسه؛ ص ١٥٦, وص١٦٦.

[٥٩]() مسند أحمد بن حنبل, الإمام أحمد بن حنبل, تحقيق: شعيب الأرنؤوط, وعادل مرشد وآخرون؛ ج١٤/ ص٥١٣.

[٦٠]() المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام؛ ج٨/ ص١٨٠، وص١٨٤

[٦١]() سورة التكوير؛ الآية ٨, و٩.

[٦٢]() ينظر؛ مفاتيح الغيب, الرازي؛ ج٣١/ص٦٦.

[٦٣]() ينظر؛ كواشف زيوف، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص٣٥١.

[٦٤]() ينظر؛ علم النفس الديني, سيريل بيرت؛ ص١٣- ص١٥

[٦٥]() ينظر؛ تأريخ العرب القديم؛ ص٢٨٢، وص٢٨٣.

[٦٦]() ينظر؛ العرب في العصور القديمة، لطفي عبد الوهاب؛ ص٣٧٩.

[٦٧]() سورة الزمر؛ ٣.

[٦٨]() المفصل في تاريخ العرب؛ ج١/ص٢٨٦.

[٦٩]() سورة النجم؛ الآية ١٩, و٢٠, و٢١.

[٧٠]() ينظر؛ العرب في العصور القديمة؛ ص٣٨١ ، وص٢٨٢.

قائمة المصادر والمراجع

ـ آدم سمث، مقدمة موجزة، ايمون باتلر، ط١، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, ٢٠١٤م.

ـ الآراء والمعتقدات، غوستاف لوبون، د.ط, المملكة العربية، مؤسسة هنداوي.

ـ الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د.ط, الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م .

ـ البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، د.ط, بيروت، دار الفكر, ١٤٢٠هـ.

ـ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن محمد بن مهدي ابن عجيبة (١٢٢٤هـ)، تحقيق: احمد عبد الله القرشي رسلان، د. ط, القاهرة، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي, ١٤١٩هـ.

ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار، د.ط, القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية, لجنة إحياء التراث.

ـ البيان والتبيين، عمر بن بحر بن محبوب الكناني الجاحظ، (٢٥٥هـ)، بيروت، دار ومكتبة الهلال, ١٤٢٣هـ.

ـ تأريخ العرب القديم، توفيق برو، ط٢، دار الفكر, ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

ـ التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور(ت١٣٩٣هـ)، د.ط , تونس، الدار التونسية للنشر, ١٩٨٤هـ.

ـ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد بهاء الدين الحسيني (ت١٣٥٤هـ)، د.ط, الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٠م.

ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ط١، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع, (١٩٩٧ – ١٩٩٨).

ـ جمالية الخطاب في النص القرآني، لطفي فكري محمد الجودي، ط١، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع, ١٤٣٥هـ– ٢٠١٤م.

ـالحديث في علوم القرآن والحديث، حسن محمد أيوب (ت ١٤٢٩هـ)، ط٢، الإسكندرية ـ دار السلام١٤٢٥هـ– ٢٠٠٤م .

ـ دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، د. سمير الشيخ، د.ط, بيروت– لبنان، دار الكتب العلمية.

ـ الشخصانية الإسلامية، الدكتور محمد عزيز الحبابي، ط٢، دار المعارف, ١١٩١.

ـ شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، الحميري، نشوان بن سعيد، تحقيق: حسين بن عبد الله العميري، ومطهر بن علي الإرياني، ويوسف محمد عبد الله، ط١، بيروت, دار الفكر المعاصر ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م .

ـ العرب في العصور القديمة، لطفي عبد الوهاب، ط٢، دار المعرفة الجامعية.

ـ علم النفس الديني، سيريل بيرت، ط١، بيروت، منشورات دار الآفاق, ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م .

ـ في تأريخ الأدب الجاهلي، علي الجندي , ط١، مكتبة دار التراث,١٤١٢هـ –١٩٩١م.

ـ الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، د.ط, بيروت، مؤسسة الرسالة.

ـ كواشف زيوف، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط٢, دمشق، دار القلم، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

ـ لسان العرب, محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، (ت٧١١هـ) ، ط٣، بيروت, دار صادر, ١٤١٤هـ.

ـ مدخل إلى علم اجتماع الإسلام من الارواحية إلى الشمولية، يوسف شلحت، ط١، بيروت ـ لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر, ٢٠٠٣م.

ـ مسند أحمد بن حنبل، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد وآخرون، ط١، مؤسسة الرسالة, ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

ـ مفاتيح الغيب، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي (٦٠٦هـ)، ط٣، بيروت, دار إحياء التراث العربي, ١٤٢٠هـ.

ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي, ط٤، دار الساقي, ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

ـ من روائع القرآن، محمد سعيد رمضان، بيروت، مؤسسة الرسالة, ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩ .

ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي، د.ط, القاهرة، دار الكتاب الإسلامي .

الرسائل الجامعية

ـ البواعث النفسية في شعر فرسان عصر ما قبل الإسلام، (رسالة ماجستير)، ليلى نعيم عطية الخفاجي، إشراف: محمود عبد الله الجادر، جامعة بغداد, كلية الآداب, ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

الدوريات

- انعكاس الطبيعة الصحراوية على حياة الإنسان الجاهلي من الناحية الاجتماعية، عبد الله الرازقي، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية, جامعة ابن طفيل, المغرب, المجلد ١, العدد: ٤، ٢٠٢٠م.

- تأويل المحبة من أخلاق المروءة إلى مقامات العرفان, د. عباس أمير، مجلة المورد, دار الشؤون الثقافية العامة, العراق ، المجلد التاسع والأربعون ، العدد ٢، ٢٠٢٢م.

- التعاور بين الفعل الماضي والمضارع في ضوء نظرية السياق، عاطف طالب عبد السلام، مجلة الدراسات اللغوية، المملكة العربية السعودية, المجلد السابع عشر، العدد الثاني، ١٤٣٦هـ.

- السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، خليل خلف بشير العامري، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد ٩، العدد ٢، ٢٠١٠.